على حساب الأهالي

لما عاد الباشا إلى القاهرة طالعه الناس بالشكوى من مسلك الجنود الدلاة والأرناؤوط وإخلالهم بالنظام، والواقع أن هؤلاء الجنود كان دأبهم النهب والسلب والعدوان على الناس، وانتهاك الحرمات والاستهانة بالأرواح والأموال، ولا يكفون عن المطالبة بالمال الذي لا يشبعون منه. وبينما كان الباشا مجتمعًا مع لاظ بك وبعض الخاصة من رجاله بمنزله بالأزبكية، إذ بالعسكر يجتمعون حول المنزل يهتفون مطالبين برواتبهم، فخرج إليهم لاظ بك وصاح بهم:

- ماذا تريدون؟
- نريد رواتبنا المتأخرة..
- لا داعي لكل هذا الضجيج، فسوف تحصلون على كل ما تريدون.

فتعالت الأصوات:

- متى؟ وقد سمعنا هذه الوعود كثيرًا!
- غدًا سوف تحصلون على رواتبكم
- لم نعد نصدقكم، ولن نبرح هذا المكان إلا بعد أن نحصل على ما نريد، أنتم كاذبون.

فلما لم يجد لاظ أية نتيجة من حواره معهم، تركهم ودخل للباشا ليحاول أن يجد حلًّا، وما إن دخل لاظ حتى بدأ الجنود في إطلاق النار، فأمر لاظ بك حرس السراي الرد بإطلاق النار على العسكر المتمردين وقال للباشا:

– لابد من ردع هؤلاء الجنود وتأديبهم؛ فقد زاد الأمر عن الحد يا أفندينا..

– صدقت يا لاظ، والأولى بنا أن نصعد إلى القلعة لنقيم بها، فلم يعد هذا المكان آمنًا بعد الآن، ولابد من تأديب هؤلاء الحمقى

– إنهم لا يستحقون أي أموال على الإطلاق؛ لأنهم لم يقاتلوا، بل أولاد البلد والفلاحين هم الذين قاوموا الإنكليز وهزموهم، يا لوقاحتهم!

واستمر إطلاق النار إلى أن نفذت ذخيرتهم، فغادروا المكان ثم عادوا مرة أخرى.

وفي ساعة متأخرة من مساء اليوم التالي، انتقل محمد علي وخاصته سرا إلى القلعة دون أن يشعر الجنود بمغادرته سراي الأزبكية المكشوفة من كل جانب، فلما علموا بالخبر ثارت ثائرتهم، واقتحموا السراي ونهبوها وأخذوا كل ما وجدوه بها، وتجمهروا في أنحاء المدينة وأطلقوا أيديهم في النهب والسلب واستفحلت الفتنة واضطربت لها العاصمة، وكادت تقضي

على الأمن والنظام فيها، وقرر الباشا نفي أحد قادتهم المحرضين إلى خارج البلاد، وقال للاظ بك وهم بالقلعة:

- هؤلاء الأخلاط المجرمون يا لاظ ليسوا جيشي الذي سيحقق ما أريد، سوف أُعد يومًا ما جيشًا نظاميا منضبطا.

- وماذا ستفعل مع هؤلاء يا أفندينا؟

- لا تقلق يا لاظ، فهناك عديد من الحروب في انتظارهم وستقضي عليهم.

ولقد كان ترك محمد علي للأزبكية وصعوده إلى القلعة يحمل كثيرًا من المعاني، فكما يقول الرافعي: والواقع أن سكن ولي الأمر في الأزبكية؛ أي في قلب العاصمة؛ يجعله أميل إلى الإصغاء لمطالب الشعب إذا هاجت خواطره، لأن الأزبكية كان الميدان الذي تحتشد فيه الجموع إذا حفزها حافز من شكوى أو احتجاج، فإذا ما سكنها ولي الأمر كان أقرب إلى رؤية مظاهرات الشعب، وأدنى للاستماع إلى صيحاته ومطالبه، أما إذا استقر في القلعة، فكأنه يريد أن يمتنع في قمة الجبل، ويضع نفسه مع المدافع المتسلطة على البلد، ويصم أذنيه عن سماع صيحات الجماهير، وينظر إلى القاهرة كما ينظر النسر المحلق في السماء إلى فريسته على الأرض.

ولا يذهب عنك أن القلعة تربض على ذروة الجبل، كما يربض الأسد في عرينه، وهي بأبراجها ومدافعها تشرف على القاهرة وتتسلط عليها،

فكأنما بناها صلاح الدين الأيوبي في ذلك الموقع ليتخذها الملوك والسلاطين معقلًا يتسلطون منه على المدينة العظيمة وأهلها، بينما كان هدفه الأساسي من بنائها هو الدفاع عن العاصمة ضد أي غزو، ويكفيك أن تصعد يومًا إلى القلعة، وتمد نظرك إلى ما يتناوله الأفق، لتتضاءل القاهرة أمامك، إذ تراها مبسوطة أمام عينيك بشوارعها، وميادينها، وقصورها، ومبانيها، وأشجارها، وحدائقها، كرقعة صغيرة تكاد تكون في قبضة يدك وعلى بسطة ذراعك، أو كأنها لوحة صغيرة من الرسوم الصامتة، ولا تكاد ترى أشباح الناس تتحرك في شوارعها وطرقاتها أن تميز بين مسيرهم ودبيب النمل، وهيهات أن تبلغ سمعك أصواتهم مهما علت أو اكتظت بهم الميادين في مختلف نواحيها القريبة والبعيدة.

فالحاكم المستبد إذ يشاهد من القلعة تلك المدينة الكبرى منبسطة أمام نظره، صامتةً لا يُسمع لها صوتًا، جامدةً لا يحس لها ركْزًا، في ذلك العلو الشاهق، تحف به الأبراج وفيها المدافع متحفزة فاغرة أفواهها على المدينة، لا جرم أن تعتريه وساوِس السلطة المطلقة، وتتملكه نزعات الاستبداد والبطش بمعارضيه. وبينما كان الباشا مستقرًّا مطمئنًّا بالقلعة، تزايدت فتنة الجنود وشملت القاهرة كلها، ولما زاد الأمر عن الحد وضج الناس من سلوكياتهم، قرر السيد عمر مكرم والعلماء التدخل لحل الأزمة، فاجتمعوا في بيت السيد عمر مكرم ومرة أخرى في القلعة نفسها، ثم في بيت السيد محمد المحروقي كبير التجار.

وفي أحد هذه الاجتماعات قال السيد عمر:

- أنتم تعرفون أن الحل دائمًا في مثل هذه الأحوال هو جمع المال..

فقال السيد محمد المحروقي:

- بالتأكيد يا سيد عمر؛ إن المال له مفعول السحر مع هؤلاء الجنود، فهل يوجد ما يكفي من المال في خزانة الحكومة لدى الباشا؟

- لا أعتقد ذلك، وإلا لكان قد قام بتهدئتهم به، وعلى أية حال، فلابد أن نقوم نحن بحل هذه المشكلة، فجميعنا متضررون منها.

- فماذا تقترح؟

- أرى أن نتحمل نحن والأهالي إتاوة جديدة نؤديها للحكومة لتوزعها على الجنود وتخمد الفتنة، فانظروا كم سيكون المبلغ المناسب لهذا الغرض.

فقام السيد محمد المحروقي بحساب المبلغ التقريبي طبقًا لعدد الجنود ومتوسط رواتبهم، وكان ماهرًا في مثل هذه الأمور بحكم عمله بالتجارة أبًا عن جد، ثم قال:

- أرى أن ألفي كيس سيكون مبلغًا مناسبًا.

فاتفقوا على ذلك وأبلغوا الباشا، فجُبيت الإتاوة ودُفعت للجنود، واستتبت السكينة على حساب الأهالي.